أفاعي الفـــردوس

ديوان الأستاذ الياس أبو شبكة

بقلم الأستاذ فليكس فارس

ديوان يحوى ثلاث عشرة قصيدة من شعر الأستاذ إلياس أبو شبكة نشرته جريدة المكشوف البيروتية فاسترعت نبراته الأسماع، واستوقفت معانيه تفكير المتأملين

إلياس أبو شبكة نسيج وحده بين شعراء العرب اليوم. ولا أقصد بهذا الوصف أن أرفعه فوق أترابه، فهو وإن كان في الطليعة من تسور الخيال، لا يسبقهم تحليقاً، ولكنه يند عن سربهم نافراً من خطوط الأنوار في أجوائهم إلى مسارح الغيوم السوداء فلا يدور إلا في مقاصف الرعود، ولا يطوي جناحيه إلا ليحط قوادمه على أدواح الغابات الموحشة أو على فوهات البراكين

أبو شبكة نسر ثائر مروع لا تستهويه سفسقة الجداول ولاعيون الأزهار ولا ناهدات الأثمار على الأماليد، وليس في إنشاده تغريد بلبل أو غناء شحرور. إن للنسر صرخات مدويات لا يأنس لها إلا من يتمشق ولولة الرياح على القمم، وهدير الأنهار في الأغوار

سمعت أبا شبكة يرسل أرائل صرخاته في القريض وأنا أحول أذني بلادي الخائفة إرعاداً أطلقه من فم المنابر، فكأنني سمعت جباراً إنشاده قرقعة سلاح، وأشعاره خطب قيودها دروع لازرد أفلال

ولو أن أبا شبكة لم يمد جناحيه إلى أفاق الدنيا ولم يطلق نظراته على مجالات الشعر في المجتمع الانساني، لوأنه حصر تشاؤمه وثورته في حدود بلاده ولم يصطدم بالموائر من آمال متقدميه، وقد ملأت منطقات المصاعد كأنها أشلاء، لكان هذا الشاعر يتيه اليوم على أرض الناس لا أرض أجداده، لكان اختاره منفى أو اختير له منفى

من أوائل قصائد هذا الشاعر أبيات وجهها إلى منذ أربع عشرة سنة يشكو بها الحياة وهو لما يزل على عتبة الشباب وقد نشرتها جريدة الشعب، ويلذ لي بل أرى من دعائم بحثي أن أقتطف منها بعض أبيات:

قال مفتتحاً:

أشكو إلي قلبك يا سيدي ... قلبا ثوى في حظي الأسود
أطلقته طفلا ولما نما ... أصبح محتاجا إلى مرشد

وقال:

فارس، ما للحر من راحة ... في وطن يرتاح للأعبد
ويل الشباب الغض من قلبه ... إذا أضلوه ولم يهتد
يا شاعر الآلام هذا دمي ... ذوبته شمعاً على معبدي
هذي شكاتي يا خطيب العلى ... أرفعها للرجل الأوحد
وجدت في نفسك ما لم أجد ... في أنفس تخمدة هجد
لامست في أقاصيها ثورة ... أخمدت النار ولم تخمد

* * *

هذه الأبيات يزفر بها صدر فتى لم يبلغ العشرين، فيها شرارات من اللهيب المندلع اليوم من كل بيت يرسله أبو شبكة، وإنني لأغتفر له الآن إغراقه في وصفي بالرجل الأوحد لأنه كان وهو يتلفت إلى في ثورته يناجي ما كمن في نفسه من مُثل يهفو إليها

وقبل أن أعرض لديوان «أفاعي الفردوس» أرى أن أقف عند قصيدة الحجر الحي التي أنشدها صاحب هذا الديوان أمام تمثال المغفور له «فوزي المعلوف» في حفلة إزاحة الستار عنه في السنة الماضية، فأقتطف منها نماذج لاستقرار الالهام وتطور البيان

أطبق جناحيك معقوداً لك الظفر
فقد وصلت وشوط المجد مختصر
ماضر وكرك أن تأتيه منطفئاً ... ما دام قلبك في جنبيه يستعر
عيناك في الحجر المصبوب ساهرة
يقظانة فيهما أحلامك الغرر
تواجه الليل هول الريح صاخبة ... ماضرك الذئب جوعاناً ولا النمر

نيران عبقر في عينيك إن مردت ... هوج الدجى فعلى عينيك تنصهر
مهما طغى الليل لا تشقيك زوبعة ... إلا على جانبي وتبيك تنصهر
يقظان والناس عمى في مراقدهم ... سيان ناموا على ذل أم احتضروا
عار علينا تنام الليل هانئة ... عيوننا وعباب الليل معتكر
لم يبق من رومة إلا سفائرها ... ومن قياصرها إلا دمى كسر
رفعت عنك ستار الناس متنفضاً ... أيحجب الخلد من يفنى ويندثر
هذي الستارة كانت في تشددها ... عليك آخر قيد شده البشر
كأنها وهي تنفي خلعة كذبت ... من الفناء لحاء عنك يقتشر
منذ ابن مريم والأكفان هاوية ... عن النبوغ وصخر القبر منحدر
كم في بلادك من نفس تود على ... وقاح عورتها أن تسدل الستر

وبيت الختام هو هذا :

لرب حيّ غدا في قومه حجراً ... ورب ميت غدا حياً به الحجر

هذا أنموذج من شعر أبي شبكة أخذناه من الأماليد ومن الجذوع وكلاهما صلب كالأرز ينتصف عوده ولا يلتوى

وإلى الشعراء الآن مقتطفات من ديوان أغاني الفردوس ، الديوان الحامل أسراراً لا يمكن لأحد أن ينكر جدته وروعته . وقد جاء أبو شبكة بطابع مستحدث في الشعر العربي سيبقى هو عميده الأول حتى في الزمن الذي سيكثر فيه أشياعه ويفوقون قامة وهامة أستاذه

لم يشأ شاعرنا أن يتقدم بديوانه دون تمهيد نثري بسط فيه رأيه في الشعر فجاء بنظرات صائبات تسلسلت في درس عميق يطل فيه من شخصية شاعر حكيم له ثقافته واطلاعه الواسع وأحكامه كشرقي مستقل في مبادئه لا يؤخذ بالتيار الغربي الذي يجتاح إلهام عدد وفير من الشعراء في هذا العهد

اسمع أبا شبكة كيف يواجه مسألة الاستلهام في أوطانه :

« وإنني لأسأل ماذا ترانا نستطيع بهذا القاموس الضيق ، هذا القاموس المتورد ، نتشبث به للتعبير عن أعمق حقائق النفس فنرفع الكلفة بيننا وبين اللغة ولا نتورع عن سلوك مهامه غائمة كأننا في حلم ؛ وقد يخيل إلينا ونحن نسلك هذه المهامه أننا نسير في الطريق الشعري السوي بينما نحن في الحقيقة لا نحاول إلا الخروج عن أنفسنا مستعبدين لنظريات خاطئة بل مضرة نحرر منها حتى مبدعوها أنفسهم »

إلى أن قال مستنتجاً :

« فالمدارس الشعرية سجون ، ونظرياتها قيود ، والشاعر لا يعيش في جو المدرسة هذا ؛ فالطبيعة هي جوه الفسيح تتكيف إحساساته بتكيف المظاهر المتقلبة فيه ، وإذا خرج الشاعر عن هذا الجو خرج عن نفسه وكذب على نفسه »

هذا ما يقوله أبو شبكة عن المدارس الشعرية التي حسن لدى الغربيين أن يدعو هامدارس . وإنا لنرى الفرصة سانحة في معرض هذا البحث لنقول كلمة موجزة عنها وعن الخطأ في تصورها وتسميتها

إذا صح أن نطلق مدارس على المذاهب العلمية والفلسفية فهل يصح أن نطلق هذه التسمية على أساليب الشعراء في بيانهم وعلى ما تستلهمه الأنفس من سرائرها ومما حولها من المشاهد ؟

إن أتباع المدارس العلمية والفلسفية ينقسمون أرهاطاً على عقائد معينة تختلف إحداها عن سائرها اختلافاً بيناً ، فهنالك طرائق وأوليات يسلم بها أشياع كل مدرسة كأنها قانون إيمان إن جنح عنه واحدهم خرج حتماً من رهطه ليدخل في رهط مدرسة أخرى . وأين في الشعر مثل هذا الاجماع مادامت السليقة وحدها هي المتحكمة في خواطر الشاعر وإحساسه ولهجته وطريقة بيانه ؟

لذلك يقول لك أبو شبكة :

« إن بول فاليري الذي جاء بنظريات خلقت في الأدب الغربي جيلا مضعضعاً لم يحد عن صراط « ماليرب » ولم يتمرد على القاعدة الكلاسيكية في النظم ؛ وإني لأجد في شعر فاليري أبياتاً يستطاع دمها في شعر لامارتين »

إن التضعضع الذي يشير أبو شبكة إليه إنما تشاهده بين فئة المتأدبين والمتشاعرين في كل أمة ، لأن المشتهرين في كل نوع من أنواع الفنون ينتصبون في خيال محاولي الابداع مثلا عليا يطالبونها بخلع العبقرية عليهم كمكافأة لتقليدهم وتصنعهم

أما الفنان الحقيقي فان طابع شخصيته يغلب على جميع المؤثرات التي تدور به والخاطرات التي تتسرب إلى سريرته من مطالعاته ، فهو يريك أبداً سماءه في إنشائه ، ويسمعك نبراته في موسيقى بيانه ، حتى ولو تجلت في أقوال من تقدموا وعاصروه من أهل فنه

إذن ليس في الفن — وأخص منه البيان على الاطلاق — ما يصح أن يدعى مدرسة ؛ وإن كان هنالك من هم بحق أساتذة ، فليس لهؤلاء الأساتذة تلامذة بمعنى التلمذة الصحيح ، إذ ما يمكن لطالب الأدب أن يستفيد من أدب معلمه سوى تقليده والسير في ركابه إذا لم يكن لهذا الطالب شخصيته المستقلة التي تجرى في مسالكها مقتبسة من كل ما يدوى في أجواء الأدب من نبرات العبقرية دون أن تجاري أحداً وأن تقلد أحداً

من الذين تسنموا ذروة الشعر في النهضة الحديثة شعراء تغنى